

النقد الثقافي وأداب ما بعد الاستعمار: دراسة في الكتابة السردية الضدية المقاومة في رواية "الأمير أبواب مسالك الحديد" لواسيني الأعرج عينة

Cultural Criticism and Postcolonial Literature: A Study in the Contradictory Narrative Writing Resistance in the Novel "The Prince of Iron Doors" Wassini Al-A'raj Sample

1- أحمد العارف 2- إشراف: د/ محمد قراش

1 قسم اللغة والأدب العربي- جامعة زيان عاشور بالجلفة – الجزائر

2 أستاذ محاضر-جامعة زيان عاشور بالجلفة- الجزائر

البريد الإلكتروني (ahmedlaref624@yahoo.fr)

تاريخ النشر: 2019/06/03

تاريخ القبول: 2019/05/29

تاريخ الإرسال: 2019/03/30

ملخص:

يتناول هذا البحث مجموعة العلاقات السائدة في الفترة الكولونيالية بين الشرق والغرب؛ حيث يرصد لنا واسيني من خلال روايته هذه "الأمير أبواب مسالك الحديد" هذه العلاقات التاريخية، وهذه الأخيرة (الرواية) تمثل سردية ما بعد استعمارية من طرف كتاب المستعمرات المنحردة، وتناولها لقضية تاريخية سابقة في المرحلة الكولونيالية، وذلك برصد صورة فرنسا الاستعمارية لدى السكان الأصليين الجزائريين وممارساتها في مختلف المجالات للسيطرة على السكان الأصليين، إضافة إلى تشويه صورة الشرق المستعمر خدمة للمصالح الإمبريالية الغربية، إضافة إلى رصد صورة الأصلي للاستعمار الغربي، فهذه الرواية تتناول قضايا الشرق والغرب في المرحلة الكولونيالية. الكلمات المفتاحية: السرد ما بعد الكولونيالي؛ الآخر؛ الغربي؛ العربي؛ الصورة.

ABSTRACT: This essay deals with the set of relations prevailing in the colonial period between East and West. Wassini, through his novel "The Prince of Iron Gates," traces to us these historical relations. The latter is a post-colonial narrative by the Liberated Colonies, The colonial image of France in the original Algerian population and its practices in various fields to control the indigenous population, in addition to distorting the image of the colonial East in the service of the interests of Western imperialism, in addition to monitoring the original image of colonialism This novel deals with issues of East and West in the colonial era.

Keywords: The postcolonial narrative ; The other ; western ; Arabi ; Image.

1. مقدمة:

تعد الدراسات ما بعد الكولونيالية من بين أهم الدراسات التي تعالج قضايا المستعمر والمستعمر، ويعد النقد الثقافي من إفرازاتها؛ فهما يتناولان قضايا شائكة وعديدة بين المستعمر والمستعمر، منها إشكاليات ثقافية وعلاقات الهيمنة والهوية والتمركز وإثبات الذات وتهميش الآخر، بتحليلها أنثروبولوجيا ثقافيا،؛ فالنقد الثقافي موضوع اشتغاله تحليل البنى الثقافية داخل مختلف الخطابات الأدبية وكشف ممارساتها، وما بعد الكولونيالية أنتجت لنا آداب ما بعد الاستعمار التي ترد على الكتابة السردية الاستعمارية التي تسعى للهيمنة الثقافية على الشعوب المنحردة من الاستعمار؛ مما أوجد سرديات ضدية مقاومة من مختلف المستعمرات محاولة الرد والتحرر من قيود الاستعمار وهيمنتها.

حيث تعيد قراءة المنتج السرد الكولونيالي وتفكيك علاقاته مع السلطة وكشف ما تتضمنه نصوصه من علامات ثقافية ذات مرجعية إمبريالية استعمارية أوروبية، إضافة إلى الكتابة السردية الضدية المقاومة للسرد الكولونيالي، فوجدت ثنائيات الأنا والآخر في تصادم بين التمركز حول الذات بالآخر في النص الأدبي ضمن الدراسات ما بعد الكولونيالية، التي تمثلت في محاولة ترسيخ الذات الغربية الاستعمارية لمركزها، وهذا الترسخ قوبل بمقاومة الذات الأخرى المنحردة المستعمرة سابقا، ورفضها للهامش التي صنفت فيه، فسعت

لذلك عن طريق المقاومة الثقافية من خلال الممارسة الإبداعية التي تتسم بالرد بإثبات ذاتها وهويتها وتشكلاتها الثقافية، فأهم ما يميز مرحلة ما بعد الكولونيالية هي إعادة الإنتاج السردي المضاد الذي يصطلح عليه بالكتابة الضدية ضمن مصطلح المقاومة الثقافية لأداب ما بعد الاستعمار، وذلك لمجابهة الفكر الاستعماري والتحرر من الهيمنة والتبعية الثقافية الغربية.

فرواية الجزائري واسيني الأعرج "الأمير أبواب مسالك الحديد" تعيد لنا ماضي الكولونيالية الهمجي الذي سعى للسيطرة على هؤلاء الأصلايين بشتى الطرق؛ حيث ينقل لنا همجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر من قتل وتعذيب وتشريد، كذلك ينقل لنا صورة الأصلايين الجزائري وطريقة مقاومته لهذا المستعمر عن طريق الأمير عبد القادر الجزائري، لذلك نطرح الإشكال الآتي: كيف نقل لنا واسيني الأعرج صورة الغربي الآخر المستعمر في الفترة الكولونيالية، وكيف رصد لنا مقاومة الأصلايين له؛ حيث تمثل روايته "الأمير أبواب مسالك الحديد" سردية ما بعد كولونيالية من الشعوب المتحررة؟.

2. الصورة Image : المفهوم والقضايا.

دأبت الدراسات الأدبية المقارنة الاشتغال على مجال الصورة باعتبارها علم يبحث في العلاقات المختلفة بين الآداب القومية المحلية والعالمية في لغاتها المتعددة، وتشكيلاتها الثقافية والاجتماعية، والتاريخية، والأيديولوجية بغية الكشف عن صورة الأجنبي في أدب الأنا، أو صورة الأنا في أدب الآخر، ولما كان النص الأدبي يحمل ما وراء السرد أو ما وراء الجمالية الأدبية، اتجهت الدراسات المقارنة في دراسة صورة أدب أمة في أدب أمة أخرى للكشف عن كيفية تصوير هذا الأجنبي في ذلك الأدب ضمن حقل الدراسات الصورية أو الصورية أو علم الصورة، فكلها تسميات متعددة لمفهوم الصورولوجيا، وتعددت مفاهيم الصورة في الحقول المعرفية المختلفة، لذلك سنتطرق إلى أهم هذه المفاهيم، إضافة إلى عوامل ومحددات دراسة الصورة في حقل الدراسات الأدبية المقارنة.

حيث "تعني دراسة الصورة الأدبية على وفق هذا التصور إلى فهم تاريخ الأفكار والأنساق الثقافية التي منحت منها، ممّا يجدر بالصور ولوجي الإلمام بالنسيج الثقافي، والإنتاج المفهومي الذي يشيء بنسق معين لمجتمع ما، وهذا يحيل على أن دراسة صورة الأجنبي تهتم بتحديد الأسس والآليات الفكرية والثقافية والمعرفية بطريقة تنميطية يبنى عليها مبدأ الغيرية، ولا يخفي وجود صور تاريخية وثقافية للآخر"¹، فدراسة الصورة الأدبية هي الاهتمام بدراسة صورة وأدب الأجنبي في الأدب المحلي، وعلى الباحث الذي يشتغل على الصورة يجب أن يكون ملما في التشكلات الثقافية والاجتماعية واللغوية لذلك البلد الأجنبي حتى يتمكن من رصد تلك المظاهر الأجنبية، فدراسة الصورة الأدبية في هذا المجال الربط بين الذات التي تمثل الأنا، والآخر الذي يعتبر أجنبيا عن مُشكّلات ووعي هذه الذات.

فالصورة "تنبثق عن إحساس، مهما كان ضئيلا (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر، و(بهنا) بالمقارنة مع مكان آخر. فالصورة هي إذن تعبير أدبي أو غير أدبي، عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي"²، فالصورة في نظر 'باجو' هي كل ما يرد من الآخر عن واقعه الثقافي القومي، وتشكّله الاجتماعي لدى المحلي، فالذات المحلية تقابل الآخر الأجنبي، ونقل صورة هذا الأخير أي الأجنبي تكون إيجابية أو سلبية فهي تنقل

التشكيلة الثقافية والاجتماعية والأدبية لذلك الأخر بوعي من الكاتب، وهذا النقل للصورة بوعي قد تتداخل فيه أيديولوجيات تاريخية وثقافية، إضافة إلى مؤسسات السلطة، وقد يكون النقل بدون وعي منه الممثل في الأجنبي.

'وسمير حجازي' يعطينا مفهوما شاملا للصورة الأدبية في حقل الدراسات الأدبية المقارنة و فيرى أنّ "الصورة Image تصور حسي في البناء الفكري للناقد أو الأديب يكتشف عن طريق الدلالات اللغوية، والنفسية، والفنية. أو تصور ذهني يتم عن طريق التشبيه أو الاستعمال للكلمات المدرجة في النص الأدبي"³، فالصورة تعبير لغوي عن محتوى ثقافي، هذا الشكل اللغوي يتصوره ذهن الأديب ويتم تجسيده عبر النصوص الأدبية في دلالات فنية وبلاغية وجمالية، غير أنّها تحمل رموزا ذات شكل نسقي لغوي تاريخي.

أما 'غاستون باشلار Gaston Pachlar' فالصورة عنده تعبر عن ذلك البعد الخفي لا البصري الظاهر فهي تتمثل في "اللامرئي هو البعد الخفي من المحسوس الذي يقطن في باطنه، أو بالأحرى هو البنية الخلقية أو السرية للأشياء المرئية، الذي يعطي لهذه الأشياء معناها"⁴، وهي البحث عن المرجعيات والتشكيلات الخفية، والأنساق المضمرّة، الخارج نصية التي تحدث أثرا تفاعليا لمتلقيها من خلال سعيها للتكريس والهيمنة، فهي تختفي وراء رموز لغوية ذات مرجعية ثقافية، وتاريخية، ساهمت في نشوئها أيديولوجية وتعد وليدة سلطة ما أنتجت ذلك النسق الثقافي المختفي وراء الجمالية الأدبية.

أما 'رولان بارث Roland Barth' يؤكد على أنّها علاقة بين مختلف الصور التي يحملها الأجنبي عن المحلي أو العكس فـ "الصورة هي ما أعتقد أنّ الأخر يفكر في"⁵، فهي ما يعتقد ويظنه الأخر عن الأنا والذات، وأيضا ما تعتقده الأنا عن الأخر غير أنّ هذا الاعتقاد يكون نتيجة لحتمية أيديولوجية، لذلك على دارس الصورولوجيا البحث على المرجعيات الخارج نصية، والشروط التاريخية، والأيديولوجية، والخطابات المنتجة، لذلك الرمز اللغوي الذي يمثل ثقافة الأجنبي.

والنص الأدبي الذي يتناول الأجنبي فإنّه محمول برموز لغوية ذات أبعاد دلالية تمثل الآخر ومرجعياته، وللبحث عن الإمكانيات الدلالية الممكنة على الباحث أن يرجع ذلك الرمز اللغوي إلى تشكّلاته الأيديولوجية المساهمة في تكثيف الوعي الممكن من خلال التاريخ، والدين، والممارسات الاجتماعية، والأديب يرصد، ويرسم ويصور تلك الممارسات الأيديولوجية عبر أنظمة لغوية تتشابك فيما بينها، غير أنّ هذا التصوير للأجنبي يكون إما حقيقة تلك الممارسات والتشكلات الثقافية، أو يصورها وفق تزييف لتلك الوقائع مشكلا أنساق أيديولوجية تحاول أن توجه ذات المتلقي وفق رؤى ممنهجة تخدم ما يناسب مؤسسات ما.

3. السرديات الثقافية:

تعرف السرديات الثقافية بتناول قضايا الثقافة وتشكلاتها داخل الأعمال الأدبية السردية كالرواية والقصة، فهي تطرح تحليل العلامات الثقافية والشروط التاريخية والأيديولوجية التي ساهمت في نشوئها، مفككة علاقاتها بمؤسسات السلطة، وعليه "ينطلق مشروع السرديات الثقافية من المقولات الإستيمولوجية والإيديولوجية والسوسيوقافية الظاهرة والمضمرّة في المتون السردية، عبر السعي إلى إنتاج معرفة جديدة بالموضوعات الكامنة فيها. انطلاقا من اعتبار السرد خطاب العالم للذات والذات للعالم"⁶، فتعالج بذلك

علاقات الذات بالعالم عبر استنطاق القضايا الثقافية الموظفة داخل السرديات الأدبية، وكشف ما تتضمنه من ممارسات على المتلقي، فهي تؤثر بدون وعي على متلقيها لتحدث أثرا ما.

فالسرد الأدبي على علاقة وطيدة بالثقافة التي ينتج منها؛ وحضور مختلف التشكلات الثقافية داخل النص الأدبي يكون بوعي وبدون وعي الكاتب؛ فالسرديات الثقافية تتناول مختلفا لخطابات والصراعات الدائرة بين الأنا والآخر، وبما أنّ السرد خطاب الذات للعالم، فإنّه يرتبط "بالثقافة ككائن أنثروبولوجي متغير باستمرار يمارس وجوده عبر فاعلية حوارية امتصاصية بغيره من الثقافات"⁷، فيحمل بذلك تمثيلات الذات وتشكلاتها، وقد يتضمن أيضا الثقافات الهجينة التي تتفاعل فيما بينها، لذلك أصبح السرد الما بعد الاستعماري سردا يحمل رؤية الذات للعالم.

وعليه تعالج السرديات الثقافية في حلقة الدراسات ما بعد الكولونيالية تلك القضايا الثقافية وتشكلاتها وشروط تكوينها ونتائجها، متجاوزة التحليل البنيوي للنص الأدبي، ف "هذه الممارسة الاختزالية المحايثة لوقع السرديات ستدفع بالنظرية الثقافية إلى البحث عن آفاق جديدة تتجاوز المستوى اللساني البنيوي لمفهوم السرد، فما يميز السرد ليس هو كونه صيغة للتلفظ، ولكن بالأساس، طبيعته عبر اللسانية. إنه يمثل خطاب الذات إلى العالم"⁸، فالسرد في الدراسات ما بعد الكولونيالية ليس مجرد محمول لساني لغوي يحيل للأنظمة اللغوية فيما بينها في التدليل، بل يحيل إلى علاقة ذلك المحمول اللساني مع مختلف السياقات التاريخية والأيدولوجية المشكلة له، حيث يبني على مجموعة شروط تساهم في بناء هذه الرؤية، فالسرد ليس "مجرد خاصية نصية مكونة للخطاب الأدبي، بل يمثل الشرط الضروري والحتي للغة والمعنى والمعرفة، معرفة الذات والعالم"⁹، فالسرد يحمل الرؤى الذاتية للعالم عن طريق المحمول اللساني. ويستند كتأب المستعمرات في الكتابة السردية ما بعد الاستعمارية التي تتناول الماضي الكولونيالي وعلاقاته بالسكان الأصليين على استحضار "سياقات الهوية والمتخيل والتاريخ وتجاذبات المعرفة والقوة من أجل فرض تصور معين للعالم، أو التحيز لتمثيلات على حساب تمهيش تمثيلات أخرى"¹⁰، محاولين تفكيك البنى الثقافية التاريخية الاستعمارية الغربية وتواطئها مع السلطة، وإثبات مختلف تشكلات الذات المستعمرة.

4. الكتابة السردية الما بعد الاستعمارية:

تمثل الكتابة السردية في مرحلة ما بعد الاستعمار ثيمات وموضوعات جديدة، ذلك أنّ السرد ما بعد الكولونيالي يعالج قضايا لم تكن تظهر للوجود، من حيث التطرق لمناهضة الفكر الإمبريالي الاستعماري، وإعادة إنتاج سرديات مضادة للمكونات السردية الاستعمارية؛ "حيث أضحى السرد الفضاء المميز الذي تنكشف فيه التجربة البشرية عندما تأخذ شكل الحبكة السردية"¹¹، فالسرد تتمثل فيه مختلف المكونات الحضارية والتاريخية، والنص يحمل تلك المكونات الأيدولوجية بوعي وبدون وعي، لذلك عدّ الإنتاج السردى ما بعد الكولونيالي الذي يتطرق للحقبة الاستعمارية ضمن المقاومة الضدية التي تسعى للتحرر من الفكر الاستعماري الغربي، وإثبات هوية وذات المستعمّر المتحرر.

وتمثل السرد ما بعد الاستعماري لكُتَّاب المستعمرات في رؤيتين: الأولى تمثل الرد على الاستعمار والكتابة الاستعمارية ونقض رؤاها الإمبريالية "من خلال الاشتغال على دراسة التمثيل الثقافي والمقاومة"¹²، أي الرد بالكتابة السردية على مخلفات الفكر الإمبريالي الغربي الأوربي. وقد مثل ذلك الرد بالكتابة على الإمبريالية الغربية، بتفكيك مركزيتها، وإثبات الهويات المتعددة لعديد الكتاب من شعوب المستعمرات المستقلة، ف "تعيد رواية ما بعد الكولونيالية عبر استراتيجية الخطاب النقيض، كتابة سرديات الأصلايين من منظور وعي نقدي تفكيكي، يعيد كتابة الماضي الكولونيالي برؤى متحررة من تمثيلات السرد الإمبراطوري"¹³، وذلك بالكتابة باللغة المحلية بتناول ثقافتها وتشكلاتها الاجتماعية وإثبات حضورها بين مختلف حواضر العالم.

فنجد أمثال الطيب صالح من خلال روايته موسم الهجرة للشمال، ويعتبر الدارسون أنّ هذه الرواية تمثل الرد على الرواية الإمبريالية قلب الظلام لجوزيف كونراد، ف "ينطلق الأصلايين الذي كان صامتا في السابق ويمارس الفعل على أرضه، كجزء من حركة مقاومة شاملة من المستعمر المستوطن"¹⁴، والملاحظ في السرد ما بعد الكولونيالي هنا، أنّه يحاول إثبات ذاته من خلال مقاومته لأشكال التسلط والهيمنة الغربية الحاضرة في كتاباتها الروائية. "فهي نصوص سردية وروائية في أدب ما بعد الاستعمار يطلق عليها (المتخيل النقيض) (أو السرد المضاد) ... إن المتخيل النقيض أو السرد المضاد يقدم صورة جديدة للآخر الغيري من خلال رؤية غير متطابقة مع الرؤية الاستعمارية أو الاستشراقية، ويسعى لبحث تأثيره الجمالي المضاد لدى أوسع شريحة من المتلقين الغربيين"¹⁵، فالسرد ما بعد الاستعماري يتناول قضايا وعلاقة المستعمر بالمستعمر، ويكشف أشكال التسلط والهيمنة الغربية في زمن الإمبريالية، وتأثيرها في ما بعد التحرر على ثقافات الدول المستقلة، إضافة إلى أنه يتناول قضايا الهوية المحلية وتشكلاتها ويثبت حضورها وذاتها، للغرب، أهمها الكتابة باللغة المحلية.

فالسرد ما بعد الكولونيالي لحواضر الشعوب المستقلة عن أوربا الذي يحمل طابع الرؤية المضادة للإرث الإمبريالي الغربي ومترسباته على الثقافات المحلية، فإنّه أولا يواجه هذا الإرث الإمبريالي، وذلك بتحطيم تلك الصورة النمطية في المخيلة الغربية عن الشرق الذي تنظر إليه بنظرة دونية ذات هيمنة، وثانيا يحال إثبات الذات المحلية بلغتها وتشكيلتها الثقافية التي حاول الاستعمار في ما مضى طمس تلك الهوية، ف "يشكل الرد بالكتابة على المركز الغربي استراتيجية مضادة في عملية إعادة الكتابة"¹⁶؛ وعليه فالسرد ما بعد الكولونيالي للمستعمرات يمثل تجربة الذات المحلية في مقابل الذات الغربية، فهو يحمل رؤيتها للعالم، ونجد عديد الكتاب من المستعمرات اللذين يعيشون في الغرب يكتبون بلغات المستعمر محاولين فكفكة الممارسات الاستعمارية الهمجية الاستيطانية ومخلفاتها، ويثبون للقارئ الغربي أحقية تلك المستعمرات بإثبات ذاتها للعالم، أمثال آسيا جبار، أهداف سويف، كاتب ياسين.

والرؤية الثانية تمثل "الدور الذي ينهض به سرد ما بعد الكولونيالية في تمثيل الهوية الثقافية بعيدا عن الضدية التي تنتج الأحقاد والكرهيات"¹⁷، وهذا السرد يمثل الهجنة الثقافية بين مختلف التشكلات الاجتماعية للتعايش بين الذات والآخر، أو بين الآخر والذات في رؤية عكسية، ويرفض تلك المبررات من

الطرفين سواء من الغرب أو من المستعمرات المستقلة، ويعترف بتأثر الثقافة المحلية مع مختلف الثقافات الأخرى، لذلك يمثل السرد ما بعد الكولونيالي في هذه الرؤية الهجينة الثقافية. فهي تسعى للهجنة وتقارب الثقافات، فالثقافات هجينة.

5. سرديات مقاومة لرواية كتاب الأمير لواسيني الأعرج الأعرج:

تمثل رواية "الأمير أبواب مسالك الحديد" للجزائري واسيني الأعرج الذي يمثل أحد الشعوب المتحررة من الاستعمار الغربي سردية ما بعد استعمارية حيث؛ ترصد أحداثها المقاومة الجزائرية للشخصية التاريخية الأمير عبد القادر (L'EmirAbdekader) للاستعمار الفرنسي الغربي الأوربي الذي احتل الجزائر، وسيطرته على جغرافية مكانها واستغلال ونهب خيراتها، وتشريد وتعذيب وقتل سكانها الأصليون؛ مما دفع الأمير لرفض الاستعمار وممارساته، حيث قاوم بشراسة عن أرضه قبل أن يستلم بعد نفاذ سبل مقاومته، وتم سجنه في فرنسا في قصر هنري (Henrie)، ثم قصر أمبواز (Ampoise) الذي سجن فيه لسنوات كثيرة، وهذا بسبب نقض الحكومة الفرنسية لبنود معاهدتها مع الأمير عبد القادر، ليتم في الأخير نقل للإقامة الإجبارية في سوريا، فاستطاعت الرواية أن تعبر عن الذات الجزائرية من خلال إثبات الأمير وعلاقاته بالآخرين في البحث في خبايا الماضي، إذ تقوم بمحاورة الذات الجزائرية بالذات الأخرى الاستعمارية.

فواسيني في هذه الرواية يوظف شخصيات تاريخية، ويعيد رسم تلك الأحداث التي دارت بين السكان الأصليون بقيادة الأمير عبد القادر، وبين فرنسا الاستعمارية، وذلك ليكشف للقارئ لما بعد الاستعماري الممارسات الإمبريالية الغربية الهمجية التي وظفت للسيطرة على السكان الأصليين؛ فهو ينقل تلك الصورة على حقيقتها التي ظللتها القوى الإمبريالية في الحراك الاستعماري لجغرافيا الشرق بتقديم تبريرات واهية موهمة التي ميزت علاقة المستعمر بالمستعمر في القرن الثامن عشر، أي في زمن الاستعمار الفرنسي الإمبريالي الغربي الأوربي في الجزائر الشرقية، التي تمثل الآخر الدوني بالنسبة لفرنسا الذي وجب احتلاله وإخضاعه للسيطرة والحكم، الجزائر تمثل السكان الأصليين، وتدور أحداث الرواية بين المقاوم الأصلي للجزائر الأمير عبد القادر والمستعمر المتغطرس الفرنسي الذي استعمل أبشع الوسائل من تعذيب وقتل وتجويع وإخضاع لدحض تلك المقاومة، وعد من يقوم بها خارجا عن القانون وجب قتله وقتل أتباعه، فهي تكشف أشكال الهيمنة والغطرسة والوحشية الفرنسي التي نفذتها في احتلال وقتل وتشريد المستعمرة الجزائر وعد من يقاوم خارجا على القانون وجب قتله وإخضاع البقية للحكم الفرنسي.

1.5 الشخصيات الموظفة في الرواية:

يتناول الروائي الجزائري واسيني الأعرج في روايته هذه "كتاب الأمير أبواب مسالك الحديد" عدة شخصيات تاريخية يعود زمنها للحقبة الاستعمارية بين المستعمر والمستعمر، فهو يرصد الصراع بين السكان الأصليين للبلاد المستعمرة الجزائر (Algerie)، وبين الاحتلال الإمبريالي الغربي الفرنسي الذي أخضع سكان هذه المستعمرة لحكمه.

فيرصد لنا شخصية الأمير عبد القادر (L'Emir Abdekader) المقاوم الأصلي للاستعمار الغربي الفرنسي الذي أخذ أرضه بالقوة، كما يروي لنا ما مدى سماحته وحقه في إثبات تشكلاته المختلفة، فهو يمثل الهوية

الأصلانية الجزائرية الشرقية، ويضيف على ذلك واسيني شاهدا من أحد رفقاء الجيش الفرنسي المستعمر الأسقف مونسينيور ديبوش أنطوان (Monseigneur Dupuch) المعين من طرف السلطات العسكرية الفرنسية للإشراف على كنيسة الجزائر الذي يشهد بأحقية المقاومة الجزائرية في التحرر من الاستعمار الفرنسي، والشاهد على تدوين تلك الوقائع أحد تابعي الأسقف ديبوش وهو: جون موبى (Jean Maubet) كذلك من مواطني الاستعمار الذي يرى الأحقية للذات الجزائرية في نيل حريتها.

كما أنّ الروائي واسيني في هذه السردية يقدم لنا شخصيات فرنسية عسكرية ومدنية، أمثال الجنرال بيجو (Bugeaud) ودوميشال (Dumishal)، وهمجيتهم في قتل وتعذيب الجزائريين لدحض المقاومة الأصلانية للقائد الأمير عبد القادر، وحتى الحيوانات لم تسلم من ذلك، وهكذا يقدم لنا أحداث هذه الشخصيات الاستعمارية التي كان هدفها السيطرة على الثروات، وتمهيش الآخر وجعله خادما للاستعمار الغربي.

12.5 الآخر الغربي:

يروى لنا واسيني الأعرج في هذه السردية أحداثا دارت في الفترة الاستعمارية بين فرنسا التي تمثل الغرب والجزائر المستعمرة التي تمثل السكان الأصليين من جغرافيا الشرق، فهي تعيد تفكيك همجية الإمبريالية الاستعمارية الفرنسية في علاقاتها مع المستعمرات، بإخضاعهم للحكم الأوربي والتمييز بين الجنس العرقي الآري والعربي في كثير المشاهد، فتصد في كثير من مقاطعها همجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر وغطرسته ففي بداية الرواية وعلى لسان الشخصية الموظفة في الرواية ديبوش الذي عين أسقف الجزائر للكنيسة بعد الغزو والسيطرة الفرنسية؛ فيروي معاناة الجزائريين ومساكينهم لدى السلطات الفرنسية بعد طلب الأمير عبد القادر الذي كان يقاوم الاستعمار الفرنسي زيارته لهم حيث رأهم في وضعية مزرية جدا، "رأى سجن قلعة القصبة الذي امتلأ بالسجناء العرب رجالا ونساء، شبه عراه تماما، تتعلق على صدورهم كائنات صغيرة مثل الدود المرتخي"¹⁸، فمعاملة الغرب للسكان الأصليين معاملة تشوبها التعذيب والتشريد والقتل لأجل إخضاعهم للهيمنة الفرنسية.

ويؤكد ذلك الروائي واسيني في روايته التي يتحدث فيها عن مرض الكوليرا الذي ظهر لدى السكان الأصليين الجزائريين، في الأحياء الشعبية؛ حيث قامت السلطات الفرنسية بهمجية اتجاه المصبيين بتطويق المكان وتركهم يموتون جوعا قبل أن يقتلهم المرض، "فقد بدأت عوارض الكوليرا تظهر في الأحياء الشعبية بقوة كبيرة... فقد حصدت هذه الريح كما يسميها الناس هنا، في الأيام الآلاف من الناس في الأحياء الشعبية، التي تم تطويقها ومنع أغلبية سكانها من الدخول إلى عمق المدينة أو الاقتراب من الثكنات العسكرية أو زيارة السجون، وتركوا يموتون جوعا وعطشا قبل أن يموتوا مرضا حتى شبع المرض منهم"¹⁹، ففرنسا الاستعمارية حتى المرضى لم يسلموا من همجيتها، فبعد أن أصاب مرض الكوليرا الجزائريين حاصرتهم وتركهم يموتون، حيث أغلبتهم ماتوا من هذا الحصار وليس من المرض، وهذا ما يؤكد واسيني في روايته هذه، فهو يرسم الصورة الاستعمارية الهمجية التي ظللتها فرنسا خلال احتلالها للجزائر.

ويزيد في مقاطعه السردية من تفكيك تلك الممارسات الهمجية الاستعمارية الفرنسية التي استعملت في الهيمنة على المستعمرة الجزائر فيقول "عندما باشر بيجو عمله، اتخذ قرارات صارمة بمنع الاتجار مع القبائل

التي لا تخضع لقانون الهدنة الفرنسي، كما حدد شروط التعامل بالالتحاق الجماعي وليس الفردي بالقوات الفرنسية ... وإجبار السكان الأصليين على وضع شارة حديدية بيضاء على صدورهم يكتب عليها عربي خاضع "Arabe soumis"²⁰، حيث تم إجبار الجزائريون على حمل شارات تميزهم عن غيرهم من الفرنسيين، بوضع شارة باللغة الفرنسية تحمل عبارة أنا عربي خاضع، فواسيني يرصد للقارئ الما بعد الاستعماري تلك الممارسات التي فرضتها فرنسا بالقوة على المستعمرة الجزائر، وسياستها المتمثلة في إخضاع السكان الأصليين لحكمها بالقوة، وعدمهم من الجنس البشري غير الأوروبي، فهو خادم للغرب لا هوية ولا تاريخ له، يجب عليه خدمة الغرب فقط.

كذلك واسيني يقدم أمثلة كثيرة عن الممارسات الهمجية الفرنسية، فيرصد لنا معركة بين السكان الأصليين للمستعمرات، وبين فرنسا الاستعمارية، فيقول "عندما انسحب الأمير أو ما تبقى من جيشه، أعطى بيجو الأمر بحرق كل المحاصيل وقلع الأشجار، وتدمير كل شيء واقف والاستيلاء على رؤوس الأغنام والأبقار والأحصنة، وسط صرخات النساء"²¹، فالفرنسيون يستعملون أبشع الوسائل من قتل وتدمير وحرق وتعذيب حتى للسكان العزل، وهذا ظنا منهم أنّ هذه الممارسات تزيد من إخضاع الآخرين لهم، وواسيني يقدم لنا مشاهد كثيرة عن تلك الممارسات الغربية في هذه الرواية عبر مقاطع سردية عديدة.

3.5 النظرية الدونية للعربي:

تحلل لنا هذه الرواية النظرية الدونية التي يحملها الغربي عن سكان المستعمرات والنظرية الاستعلائية للتفوق العرقي والحضاري الأوروبي وكيف ينظر للآخر أثناء الاستعمار فيرصد لنا الروائي مشهد لتلك النظرية الدونية للسكان الأصليين من خلال المساجين الفرنسي الذين اعتقلوا لدى الأمير عبد القادر الذي يمثل المستعمرة الجزائر حيث تملت النظرية الدونية للمرأة الفرنسية بمطالبة أسقف الجزائر بمفاوضة الأمير إطلاق سراح زوجها حيث قالت للأسقف: "أنا زوجة ماسو نائب المتصرف المالي العسكري الذي سجن بالقرب من الدويرة ... سجين لدى العرب ... وأخشى أن يقتل زوجي ... الأخبار يا سيدي تقول إن العرب يقتلون سجناءهم ويبعثون آذانهم ورؤوسهم لمسؤوليهم لكي ينالوا حقوقهم بحسب عدد الرؤوس والآذاني التي يقطعونها"²²، فهي لا تسمي الأمير باسمه وإنما تقول العرب كأن لا اسم له وتزيد من تلك النظرية الدونية حيث تعتبر العرب قتلة لأجل المال فقط فهي تصورهم في حالة من الدني وتقول أن العرب يقتلون لأجل المال فقط حيث لا هوية ولا أرض لهم فهم لصوص يقتلون ويحصلون على المال فقط.

4.5 المستعمرة الجزائرية المقاومة من خلال رواية الأمير:

يرصد لنا واسيني في هذه الرواية صورة الجزائر وشرعيتها في مقاومة الاحتلال الفرنسي وطرده من أرضه التي احتلها بالقوة المتغترسة حيث يروي في كثير من الأحداث على لسان شخصيتها الفرنسي أسقف الجزائر الذي عينته الحكومة الفرنسية بعد احتلالها للجزائر سماحة السكان الأصليين وحق دفاعهم عن حريتهم، من أولى تلك الأحداث إطلاق صراح المساجين الذين طلب منه أسقف الجزائر إطلاقهم حيث وجه هذا الأخير إطلاق سراح المساجين الفرنسيين عنده فرد عليه الأمير بقوله لو طلبت مني إطلاق سراح المساجين الفرنسيين عندي وإطلاق كذلك سراح المساجين المرشدين الجزائريين كذلك فتعجب لرسالة الأمير لعدائته في

ذلك وحقه في الدفاع عن أسراه. حيث يقول الأمير "كنت أدافع عن شعب احتلت أرضه وسلبت خيراته فقط"²³، أي الروائي يحاول أن يثبت الأحقية للأمير عبد القادر شرعية مقاومته للاستعمار الفرنسي الإمبريالي الذي احتل أرضه بالقوة وحاول طمس هويتها وثقافتها.

6. خاتمة:

تعرض لنا رواية الأمير سرديات ما بعد الاستعمار للمستعمرات التي خضعت للهيمنة الغربية الأوروبية بالضبط فرنسا التي غزت الجزائر فهي تتناول علاقة المستعمر بالمستعمر أثناء السيطرة الاستعمارية، وتعرض معارك الأصلايين في مقاومتهم للأخر الغربي الذي مارس أشكال الهيمنة والغطرسة التي استعملت متمثلة في التشريد والتقتيل والتعذيب لدحض تلك المقاومات وعدّها خارجة عن القانون، بل اعتبرت الأصلايين دوني لا يمثل ولا يتمثل من التاريخ شيئاً استناداً لمعايير المركزية الغربية المتمثلة في عد أوروبا حواضر العالم سواء في الثقافة أو في العرق الأصلي للعالم.

وعليه، فقد عرضت لنا رواية واسيني الأعرج "كتاب الأمير أبواب مسالك الحديد" تلك المشاهد المرعبة التي استعملها الغرب في السيطرة على السكان الأصلايين، منها الإقصاء والتهميش، إضافة إلى دحض كل المقاومات للأصلايين في طرد الاستعمار الغربي، ويمكن عدّ هذه السردية من السرديات لما بعد الاستعمارية للسكان الأصلايين الذين تحرروا من الاستعمار وأعادوا الرّد بالكتابة على همجية الاستعمار الغربي الإمبريالي ووحشية، فهي ترصد تلك المشاهد الدامية العسكرية الدامية والثقافية التي سعت إلى إقصاء ومحو هوية الأصلايين.

وكذلك رصدت لنا شرعية المقاومة التي اعتمد عليها السكان الأصلايين في محاربتهم للاستبداد والهيمنة والسيطرة التي استغلّت خيراتهم ونهبت أموالهم وأراضهم فالأمير لم يكن سوى يدافع عن أرضه المغتصبة بالقوة من فرنسا الاستعمارية، كما يتحدث الروائي عن ثقافة المحلي وقيمه ومبادئه التي يمتاز بها، فتشكلات مجتمعه هي جزء من التاريخ والهوية الأيديولوجية التي يتمتع بها ككل الغربيين.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1.7 المصادر:

1- واسيني الأعرج: كتاب الأمير "أبواب مسالك الحديد" دار الآداب للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 2008.

2.7 المراجع:

1. إدريس الخضراوي: سرد ما بعد الكولونيالية، الهوية والنقد الثقافي لفكرة الهيمنة، ضمن كتاب "المقارنون العرب اليوم" تكريماً للأستاذ سعيد علوش"، القسم الأول، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم181، تنسيق: إدريس اعبيزة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط1، 2014.
2. إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 2014.
3. جاستونياشارل: جماليات الصورة، تر: غادة الإمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2010.
4. حفيظة أحمد: صورة الأخر في المتخيل النقيض "رواية (خارطة الحب) لأهداف سوييف نموذجاً، ضمن كتاب "المقارنون العرب اليوم"، القسم الثاني. سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم181، تنسيق: إدريس اعبيزة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط1، 2014.
5. دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.
6. رولان بيارث: هسهسة اللغة، تر: مندر عياش، مركز الإنماء الحضاري، ط1، د/ب، 1999.
7. سليمة مسعودي: الكولونيالية الجديدة وهولوكوست الهوية العربية "استكشالات ثقافية في "حكاية العربي الأخير 2084" لواسيني الأعرج، العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، تأليف مجموعة من الأكاديميين، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018.

8. سمير الخليل: مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي 'إضاءة توثيقية للمفاهيم المتداولة'، دار الكتب العلمية، د/ط، د/ب، د/ت.
9. سمير حجازي: المتن "معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة".
10. محمد بوعزة: سرديات ثقافية "من سياسة الهوية إلى سياسة الاختلاف"، منشورات ضفاف/ منشورات الاختلاف، ط1، 2014.

8. الهوامش:

- ¹ سمير الخليل: مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي 'إضاءة توثيقية للمفاهيم المتداولة'، دار الكتب العلمية، د/ط، د/ب، د/ت، ص213.
- ² دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص87.
- ³ سمير حجازي: المتن "معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة"، ص104/103.
- ⁴ جاستون باشلار: جماليات الصورة، تر: غادة الإمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2010، ص67.
- ⁵ رولان بيارث: هسهسة اللغة، تر: منذر عياش، مركز الإنماء الحضاري، ط1، د/ب، 1999، ص486.
- ⁶ سليمة مسعودي: الكولونيالية الجديدة وهولوكوست الهوية العربية "استكشالات ثقافية في "حكاية العربي الأخير 2084" لواسيني الأعرج، العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، تأليف مجموعة من الأكاديميين، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص68/67.
- ⁷ نفسه: ص69.
- ⁸ محمد بوعزة: سرديات ثقافية "من سياسة الهوية إلى سياسة الاختلاف"، منشورات ضفاف/ منشورات الاختلاف، ط1، 2014، ص33.
- ⁹ نفسه: ص34.
- ¹⁰ نفسه: سرديات ثقافية، ص35.
- ¹¹ إدريس الخضراوي: سرد ما بعد الكولونيالية، الهوية والنقد الثقافي لفكرة الهيمنة، ضمن كتاب "المقارنون العرب اليوم" تكريماً للأستاذ سعيد علوش"، القسم الأول، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم181، تنسيق: إدريس اعبيزة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، ط1، 2014، ص160.
- ¹² نفسه: ص161/160.
- ¹³ محمد بوعزة: سرديات ثقافية، ص49.
- ¹⁴ إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، لبنان، 2014، ص270.
- ¹⁵ حفيظة أحمد: صورة الآخر في المتخيل النقيض "رواية (خارطة الحب) لأهداف سوييف نموذجاً، ضمن كتاب "المقارنون العرب اليوم"، القسم الثاني، ص466.
- ¹⁶ محمد بوعزة: سرديات ثقافية، ص50.
- ¹⁷ إدريس الخضراوي: سرد ما بعد الكولونيالية، ص161.
- ¹⁸ واسني الأعرج: كتاب الأمير "أبواب مسالك الحديد" دار الآداب للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 2008، ص56.
- ¹⁹ نفسه: ص173.
- ²⁰ نفسه: ص304.
- ²¹ نفسه: ص305.
- ²² نفسه: ص55/54.
- ²³ نفسه: ص151.